هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟

رحلة فلسفية في معنى الوجود والوعي والخلق

تأليف

عادل معطي

أنا إبن هو

قبل أن نبحث عن حقيقة الوجود، يجب أن نسأل أنفسنا"

"من نحن الذين نبحث؟

الطبعة الأولى
2026

الفهرس

المقدمة
الفصل الأول: هل السؤال صحيح؟
الفصل الثاني: التناقض... مفتاح الفهم
الفصل الثالث: بين الحلم والواقع
الفصل الرابع: الرياضيات... لغة العقل
الفصل الخامس: الوجود بين الإدراك والاحتمال
الفصل السادس: الذاكرة وصناعة معنى الوجود
الفصل السابع: من أنا؟ بين الجسد والوعي
الفصل الثامن: أنا بين الوجود واللاوجود
الفصل الأخير: السؤال الذي يعود إلى بدايته
الخاتمة: السؤال الذي يبقى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

منذ أن بدأ الإنسان يفكر بعقله، ظهر سؤال سالت من أجله الدماء، واشتعلت بسببه الحروب، وتفرقت بسببه الأمم، وظن كل فريق أنه قد بلغ الحقيقة الكاملة.

ذلك السؤال هو:

هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟

غير أنني أرى أن هذا السؤال، في صورته المتداولة، ليس سؤالًا عقليًا خالصًا، بل هو سؤال يحتاج أولًا إلى مراجعة منطقه قبل البحث عن جوابه.

فعندما نتحدث عن **الخلق**، فإننا نقصد انتقال شيء من حالة العدم أو عدم الوجود بالنسبة إلى وجوده المعلوم، أو إيجاد شيء لم يكن موجودًا على صورته التي نراها. ولا يهم بعد ذلك كيف وقع هذا الخلق؛ أكان بتركيب مواد، أم بتفاعل فيزيائي، أم بغير ذلك، فالمقصود هنا هو وجود شيء بعد أن لم يكن موجودًا بهذه الصورة.

فإذا كان الوجود نفسه هو موضوع الحديث، فكيف يُطرح سؤال عن **خالق الوجود** وكأنه أحد الموجودات الداخلة في الوجود الذي نبحث فيه؟

ومهما اختلفت تصورات الناس عن أصل الوجود، فإن كل تصور يفترض سببًا أو مبدأً أو خالقًا لذلك الوجود. ولذلك فإن السؤال في نظري يحتاج إلى إعادة صياغة قبل محاولة الإجابة عنه.

فهل يصح منطقيًا أن نسأل: **هل خالق الوجود موجود أو غير موجود؟** أم أن السؤال نفسه يفترض مقدمات تحتاج إلى فحص؟

هذا الكتاب ليس محاولة لفرض نتيجة على القارئ، وإنما هو رحلة في تحليل هذا السؤال، وبيان ما إذا كان قد صيغ منذ البداية على الوجه الصحيح، أم أن المشكلة تكمن في السؤال نفسه قبل أن تكون في الجواب.

الفصل الأول: هل السؤال صحيح؟

إن الصياغة المنطقية لهذا السؤال تبدو محل نظر منذ البداية؛ لأن الوجود، بحسب الفرض الذي نتحدث عنه، لم يكن موجودًا قبل أن يوجد. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن نسأل عن خالق الوجود كما لو كان داخل الوجود نفسه؟

إذا كنا نتحدث عن خط زمني يبدأ مع خلق الوجود، وعن كل ما نعرفه من مادة، وزمان، ومكان، وفكر، فإن السؤال: **«هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟»** يصبح بحاجة إلى مراجعة قبل البحث عن جوابه.

ذلك أن خالق الوجود – أيًا كان تصوره – لا يمكن أن يكون جزءًا من الوجود الذي أوجده؛ لأننا لو جعلناه جزءًا منه، لكنا قد افترضنا وجود الوجود قبل وجوده، وهو تناقض في الفرض نفسه.

قد يسأل سائل: **من هو خالق الوجود؟**

والجواب في هذه المرحلة من البحث ليس أننا نعلم من هو، ولا أننا نصف حقيقته، وإنما نقول: إننا لا نعرف ماهيته، ولا ندعي الإحاطة بها. وكل ما نناقشه هنا هو البناء المنطقي للسؤال، لا هوية الخالق.

فالفكرة نفسها تنتمي إلى الوجود، وكذلك اللغة، والحروف، والألفاظ، والتصورات العقلية. فإذا كان خالق الوجود هو الذي أوجد الوجود، فلا يصح أن نحصره في فكرة؛ لأن الفكرة من مخلوقات الوجود. ولا يصح أن نحصره في لفظ أو حرف؛ لأن الحرف أيضًا من الوجود.

ولهذا فإن محاولة تعريف خالق الوجود تعريفًا يحيط بحقيقته قد تكون محاولة لاستعمال أدوات تنتمي إلى الوجود من أجل الإحاطة بما يُفترض أنه ليس جزءًا منه.

وينطبق الأمر نفسه على المكان. فمن غير المنطقي أن نسأل: **أين يوجد خالق المكان؟** لأن كلمة «أين» لا يكون لها معنى إلا داخل المكان نفسه. فإذا كان الحديث عن خالق المكان، فإن السؤال يفترض وجود المكان قبل خلقه، وهو افتراض يناقض نفسه.

وكذلك الزمان. فمن غير المنطقي أن نسأل: **متى خلق خالق الزمان الزمان؟** لأن كلمة «متى» لا يكون لها معنى إلا بوجود الزمن. فإذا كان الزمن نفسه هو موضوع الخلق، فلا يمكن استعمال الزمن للحكم على ما يسبق وجوده.

ولهذا فإن مثل هذه الأسئلة ليست – في هذا التصور – أسئلة منطقية بالضرورة، بل قد تكون مبنية على افتراضات تجعلها تدور في حلقة من التناقض. ومن هنا تبدأ رحلتنا: ليست في البحث عن الجواب أولًا، بل في فحص السؤال نفسه، وهل صيغ على نحو يسمح أصلًا بالإجابة عنه.

الفصل الثاني: التناقض... مفتاح الفهم

لقد اتفقنا في الفصل الأول على أن السؤال: **«هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟»** يبدو في ظاهره سؤالًا عاديًا، لكنه في حقيقته سؤال تحيط به الألغاز والأسرار، بل وتختبئ في بنيته مفارقات تحتاج إلى التأمل قبل البحث عن الإجابة.

ولكي نستوعب الفكرة أكثر، لا بد أن نتوقف عند مفهوم أراه أساسًا في فهم الإنسان للعالم، وهو **التناقض**.

فالإنسان لا يدرك معنى العدل إلا إذا عرف الظلم، ولا يفهم معنى النور إلا إذا عرف الظلام، ولا يميز النهار إلا بوجود الليل، ولا يعرف الجمال إلا إذا قارنه بالقبح.

وكأن الأشياء لا تتجلى للعقل إلا بأضدادها.

ومن هذا المنطلق، أقول: إذا أردنا أن نفهم معنى الوجود، فلا بد أن نستوعب أيضًا معنى اللاوجود. فالمفهومان متقابلان، وكل واحد منهما يمنح الآخر معناه.

وعلى هذا الأساس، فإن من خلق مفهوم الوجود قد خلق أيضًا مفهوم اللاوجود؛ لأن إدراك أحدهما لا يكتمل إلا بالآخر.

ومن هنا أصل إلى تصور شخصي، وهو أن الخالق – إن كان خالقًا للوجود – فلا يمكن أن يكون محصورًا داخل الوجود ولا داخل اللاوجود، بل إن مفهوم الخالق يعلو على هذين المفهومين معًا؛ لأنه هو الذي يمنحهما معناهما.

وأعلم أن مثل هذه الأفكار قد تثير شيئًا من تضارب التصورات، ولذلك فإنني لا أقدمها بوصفها حقائق نهائية، وإنما بوصفها رؤية فلسفية أحاول من خلالها أن أفهم معنى الخلق.

لكن قبل أن أتحدث عن الخلق، لا بد أن أوضح أولًا كيف أفهم الوجود.

أرى أن ما يسميه الناس «الوجود» ليس إلا عالمًا وجوديًا واحدًا من بين عدد لا متناهٍ – في التصور الفلسفي – من العوالم الممكنة.

فما نراه بأعيننا، ونلمسه بأيدينا، ونشعر به بحواسنا، ليس بالضرورة كل الوجود، بل هو العالم الذي نعيش فيه وندركه بحواسنا وعقولنا.

ولأن هذا هو العالم الذي نتعامل معه كل يوم، فسأجعله محور حديثي.

وفي تصوري، يقوم هذا العالم على ثلاثة أركان أساسية:

- الفضاء.
- الزمان.
- الحركة.

فإذا اجتمعت هذه الأركان الثلاثة، أمكن الحديث عن وجود العالم كما نعرفه. أما إذا اختل أحدها، فإن صورة هذا الوجود تتغير أو تزول، وينتقل الحديث إلى ما أسميه – في هذا التصور – **اللاوجود**.

وبناءً على ذلك، فإنني أميز بين مجموعتين فلسفيتين:

مجموعة الوجود، وهي كل ما تتحقق فيه شروط الوجود التي نتحدث عنها.

و**مجموعة اللاوجود،** وهي ما لا تنطبق عليه تلك الشروط.

وهاتان المجموعتان لا نفهمهما إلا من خلال التناقض، لأن كل واحدة منهما تكشف معنى الأخرى.

وبعد أن أوضحت كيف أفهم الوجود، أنتقل الآن إلى كيف أتصور الخلق.

وسأضرب مثالًا بسيطًا.

أغلق عيني.

أتخيل شجرة.

ثم أمنحها زمنًا، فتنمو.

وأخلق لها فضاءً تتحرك فيه.

وأجعل الرياح تداعب أغصانها.

ثم أتخيل أن لها ساقين، فتمشي.

وأخلق لها بحرًا، فتسبح فيه.

وفي تلك اللحظة تبدو الشجرة وكأنها تعيش عالمًا كاملًا داخل خيالي.

ثم أفتح عيني.

أين ذهبت الشجرة؟

لقد كانت موجودة في حدود خيالي وحده.

وهل كانت تملك إرادة حقيقية؟

في تصوري، كانت إرادتها محدودة بما تخيلته لها، وحريتها مقيدة بحدود العالم الذي أنشأته لها.

ومن هذا المثال البسيط، أحاول أن أقترب من فهم معنى الخلق: أن يوجد عالم كامل بقوانينه وحدوده من داخل إرادة الخالق له، دون أن يكون هذا المثال دليلًا على حقيقة الخلق، وإنما وسيلة لتقريب الفكرة إلى الذهن.

الفصل الثالث: بين الحلم والواقع

بعد أن حاولنا، بصورة تقريبية، أن نحدد مفهوم الوجود الذي نعرفه، وأن نوضح كيف أتصور معنى الخلق، يحسن بنا أن نتأمل عالمًا يعيشه كل إنسان، لكنه قلما يقف عنده طويلًا، وهو **عالم الأحلام**.

إنني لا أرى الحلم ظاهرة وُجدت عبثًا، بل أراه بابًا للتفكر، وآية تدعو الإنسان إلى إعادة النظر في يقينه بما يسميه «الواقع».

فعندما أكون في الحلم، أعيش أحداثه كما لو كانت حقيقة كاملة. فإذا خفت، كان خوفي حقيقيًا بالنسبة إليّ. وإذا حزنت، حزنت بصدق. وإذا فرحت، شعرت بالفرح كما أشعر به في يقظتي.

وفي أثناء الحلم، لا يخطر ببالي أنني أحلم، بل أتصرف وكأن ذلك العالم هو الواقع الوحيد.

ثم أستيقظ.

وفي تلك اللحظة أدرك أن كل ما عشته لم يكن جزءًا من العالم الذي أعيش فيه الآن، رغم أن إحساسي به أثناء الحلم كان إحساسًا حقيقيًا تمامًا.

وهنا يبرز سؤال يستحق التأمل:

إذا كان العقل يستطيع أن يجعلني أعيش حلمًا بكل هذه الواقعية، فما الذي يجعلني أجزم أن العالم الذي أعيشه الآن هو الحقيقة المطلقة، وليس مستوى آخر من مستويات الإدراك؟

لست أقول إن العالم الذي نعيش فيه مجرد حلم، وإنما أدعو إلى التأمل في الكيفية التي ندرك بها هذا العالم.

فكل ما يصل إلينا من الخارج إنما يصل عبر الحواس: البصر، والسمع، والشم، واللمس، وسائر وسائل الإدراك.

لكن هذه الحواس لا تنقل إلينا الواقع كما هو، وإنما تنقل إشارات ومعلومات، ثم يتولى العقل تفسيرها، وترتيبها، وربطها ببعضها، حتى تتكون لدينا الصورة التي نسميها «الواقع».

وبعبارة أخرى، فإن ما نسميه الواقع هو نتيجة عملية إدراك معقدة، يشترك فيها الإحساس والعقل معًا.

ولهذا، فإن الجزم بأن ما نراه هو الحقيقة المطلقة ليس أمرًا يسيرًا، بل هو من أعقد المسائل التي شغلت الفلاسفة عبر التاريخ.

ومن هنا ظهرت أسئلة مثل: هل العالم موجود كما نراه؟ وهل يمكن الوثوق بالحواس؟ وهل أنا موجود حقًا كما أتصور نفسي؟

إن هذه الأسئلة لم تنشأ عبثًا، وإنما نشأت لأن الإنسان أدرك أن بين الواقع كما هو، والواقع كما يدركه العقل، مسافة تحتاج إلى التفكير.

وفي تصوري، يبقى مفهوم الوجود مفهومًا عقليًا؛ أي إنه يرتبط بالطريقة التي يفهم بها العقل العالم ويصنفه ويمنحه معنى.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن السؤال: **«هل خالق الوجود موجود؟»** يصبح – من وجهة النظر التي أبني عليها هذا الكتاب – سؤالًا يحتاج أولًا إلى مراجعة بنيته المنطقية؛ لأنه يستخدم مفهوم «الوجود» الذي ينتمي إلى العالم الذي نحاول تفسيره، ثم يطبقه على ما يُفترض أنه أصل ذلك العالم.

ولذلك أرى أن الإشكال لا يكمن في الجواب، بل يبدأ من صياغة السؤال نفسه. فإذا كان السؤال قد بُني على مقدمات غير منضبطة، فلن يكون الجواب عنه أكثر انضباطًا من السؤال الذي نشأ منه.

الفصل الرابع: الرياضيات... لغة العقل

بعد أن تحدثنا عن الحواس، وعن الطريقة التي يستقبل بها العقل المعلومات القادمة من العالم، ننتقل الآن إلى سؤال آخر أكثر عمقًا:

ما هي الرياضيات؟

كنت أظن في البداية أن الإنسان استطاع أن يكتشف علمًا قائمًا بذاته اسمه الرياضيات، وكأنها شيء موجود في الخارج ثم جاء العقل واكتشفه كما يكتشف الإنسان شيئًا ماديًا.

لكن عند التأمل، ظهرت لي صورة أخرى.

ربما لم تكن الرياضيات مجرد شيء اكتشفه الإنسان من الخارج، بل كانت أيضًا الطريقة التي ينظم بها العقل المعلومات التي تصل إليه من العالم.

فعندما تنظر العين إلى الأشياء، لا تصل الصورة إلى العقل كصورة جاهزة مكتملة، بل تصل إشارات تحتاج إلى تفسير وتنظيم. فيقوم العقل بعمليات معقدة، وكأنه يحول هذه الإشارات إلى صورة مفهومة.

وكذلك الصوت؛ فما يصل إلى الأذن ليس معنى جاهزًا، بل اهتزازات تقوم آليات العقل بتحليلها وترجمتها حتى تصبح صوتًا ومعنى.

ومن هنا يمكن أن ننظر إلى الرياضيات على أنها إحدى اللغات العميقة التي يستخدمها العقل لفهم العالم، فهي ليست فقط أرقامًا ورموزًا، بل طريقة لتنظيم العلاقات والأنماط والقوانين.

وكأن العقل لا يرى العالم كما هو فقط، بل يعيد بناء صورة له من خلال أنظمة داخلية، والرياضيات إحدى أهم هذه الأنظمة.

ولهذا يمكن القول إن الإنسان لم يخرج الرياضيات من العالم الخارجي فقط، بل أخرجها أيضًا من داخله، من الطريقة التي يعمل بها عقله في فهم الأشياء وربطها ببعضها.

فالرياضيات ليست مجرد أداة نستخدمها لوصف الكون، بل هي أيضًا اللغة التي يستخدمها العقل لكي يقرأ هذا الكون.

إنها لغة الصلات بين الأشياء، ولغة القياس، ولغة النظام، ولغة محاولة الإنسان لفهم الوجود من حوله.

الفصل الخامس: الوجود بين الإدراك والاحتمال

من هنا يمكن أن نصل إلى فكرة أكثر عمقًا: إن كل ما نسميه «موجودًا» لا ندركه إلا من خلال حالة وجودية مرتبطة بالإدراك العقلي.

فالوجود كما نعرفه لا يصل إلينا مباشرة، بل يصل عبر العقل الذي يستقبل المعلومات، وينظمها، ويمنحها معنى. ولهذا فإن إثبات الوجود كما هو في ذاته ليس أمرًا بسيطًا، بل هو من أعقد الأسئلة التي واجهت الفكر الإنساني.

وقد حاول الفلاسفة عبر التاريخ البحث عن نقطة يقين يمكن الانطلاق منها لإثبات الوجود.

فقال Augustine of Hippo بمعنى قريب: إذا كنت أخطئ، فلا بد أنني موجود؛ لأن الخطأ نفسه يحتاج إلى كائن يقوم به.

وقال René Descartes: **أنا أفكر، إذن أنا موجود؛** فجعل التفكير دليلًا على وجود الذات المفكرة.

وهذا يدل على أن الوصول إلى إثبات الوجود ليس قضية سهلة، بل يحتاج إلى البحث عن الأساس الذي لا يمكن الشك فيه.

ومن هنا ننطلق إلى ما نسميه «الواقع».

فالواقع الذي نراه يمكن أن ننظر إليه باعتباره بناءً هندسيًا هائلًا، لوحة مليئة بالعلاقات والأنماط والاحتمالات.

وكل ما يظهر لنا في هذا الواقع قد يكون صورة من بين عدد كبير من الإمكانيات الممكنة. فنحن نعيش حالة محددة من بين احتمالات كثيرة، ونختبر مسارًا واحدًا من بين مسارات محتملة.

ومن هذا المنظور، يصبح الوجود الذي نعيشه ليس مجرد أشياء ثابتة فقط، بل شبكة من الإمكانيات التي تحققت في صورة معينة.

أما الزمن، فيمكن النظر إليه من زاويتين:

فمن جهة، يمكن حسابه باعتباره كمية أو معلومة فيزيائية مرتبطة بالحركة والتغير.

لكن من جهة أخرى، لا يصبح للزمن معنى إنساني إلا عندما يرتبط بمفهوم **اللحظة**.

فاللحظة هي التي تمنح الزمن تجربة ومعنى؛ فيها يعيش الإنسان، ويتذكر الماضي، ويتطلع إلى المستقبل.

وبدون اللحظة، يبقى الزمن مجرد ترتيب للأحداث، أما مع الوعي تصبح له قيمة ومعنى، ويصبح جزءًا من تجربة الوجود نفسها.

الفصل السادس: الذاكرة وصناعة معنى الوجود

بعد أن تحدثنا عن الإدراك، وعن الطريقة التي يبني بها العقل صورته عن العالم، ننتقل الآن إلى عنصر آخر لا يقل أهمية في تكوين مفهوم الوجود، وهو **الذاكرة**.

فالإنسان لا يعيش اللحظة الحالية فقط، بل يعيش داخل سلسلة مترابطة من اللحظات. وهذه السلسلة هي التي تمنحنا الإحساس بأن هناك حياة مستمرة، وأن هناك ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

ولكي نفهم أهمية الذاكرة، يمكن أن نقارن بين عالم الحلم والعالم الذي نسميه الواقع.

لنفترض أن الإنسان في عالم الأحلام يمتلك ذاكرة متصلة ومنظمة زمنيًا، ذاكرة يستطيع من خلالها أن يحتفظ بما حدث في الأحلام السابقة، ثم يعود في الليلة التالية ليكمل من حيث توقف.

في هذه الحالة، لو كانت أحلامنا مترابطة بذاكرة مستمرة، فقد يصبح عالم الأحلام بالنسبة لنا عالمًا له تاريخ، وله تطور، وله مستقبل. سنبني فيه تجارب، ونراكم فيه المعرفة، ونشعر بأننا نتقدم داخله.

لكن ما يجعلنا نميز الحلم عن الواقع هو أن الحلم غالبًا لا يمتلك هذه الاستمرارية التي نعرفها في حياتنا اليومية.

أما في العالم الذي نسميه «الواقع»، فإن الذاكرة تمنحنا هذا الترابط. فعندما أستيقظ في الصباح وأحتفظ بذكريات الأمس، أشعر بأنني نفس الشخص، وأن حياتي امتداد متصل، وأنني أسير في خط زمني واحد.

فالذاكرة لا تحفظ الأحداث فقط، بل تبني الإحساس بالهوية، وبالتقدم، وبالتطور.

ولو تخيلنا عالمًا مختلفًا، عالمًا نستيقظ فيه كل يوم بذاكرة جديدة تمامًا، دون أي ارتباط بالماضي، فإن مفهوم الحياة كما نعرفه سيتغير جذريًا.

لن يكون هناك معنى للتجربة، ولا للتعلم، ولا للتطور، لأن كل لحظة ستبدأ من الصفر.

وفي هذه الحالة، قد يصبح العالم الذي نسميه اليوم «واقعًا» مشابهًا للحلم؛ لأن الحلم سيصبح هو العالم الذي نحتفظ فيه بالذاكرة، ونبني داخله تاريخًا ومستقبلًا.

إذن، من هذا المنظور، ليست الأشياء وحدها هي التي تمنحنا معنى الوجود، بل إن الذاكرة تلعب دورًا أساسيًا في تشكيل هذا المعنى.

فالوجود كما نختبره ليس مجرد حضور للأشياء، بل هو علاقة بين الإدراك والذاكرة والزمن.

وهكذا يمكن القول إن الذاكرة ليست مجرد مخزن للمعلومات، بل هي أحد الأسس التي تجعل الإنسان يشعر بأنه يعيش وجودًا حقيقيًا ومستمرًا.

الفصل السابع: من أنا؟ بين الجسد والوعي

بعد أن تحدثنا عن الذاكرة، وعن دورها في بناء مفهوم العالم الذي نسميه حقيقة، ننتقل الآن إلى سؤال أكثر قربًا من الإنسان نفسه:

من أنا؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال، يجب أن أتأمل في الشيء الذي أظنه أنا، وهو الجسد.

فالجسد مادة تتحرك، وله أعضاء ووظائف، وله أثر يظهر منه، ومن هذا الأثر يأتي ما نسميه الظل.

والظل تابع للجسد؛ فإذا تحرك الجسد تحرك ظله، وإذا توقف الجسد توقف ظله. فالظل لا يملك استقلالًا عن مصدره، بل يعتمد عليه في وجوده.

وبنفس الطريقة، إذا كان هناك ما يتحكم في الجسد، فإن هذا المتحكم هو أيضًا المتحكم في الظل الناتج عنه.

لكن هل أنا هو هذا الجسد؟

إذا كان الجسد هو أنا، فماذا يحدث عندما يفقد هذا الجسد القدرة على الحركة؟

إن الجسد الذي كان يتكلم بالأمس، قد يصبح عاجزًا عن الكلام. والجسد الذي كان يرى بعينيه، قد تصبح عيناه مفتوحتين دون أن يرى. والجسد الذي كان يمشي بقدميه، قد تبقى له القدمان دون حركة.

فأين ذهبت القدرة التي كانت تمنح هذا الجسد الحياة والفعل؟

من هنا يظهر لي أن «أنا» ليست مجرد المادة التي يتكون منها الجسد، بل هي ما يجعل هذه المادة قادرة على الفعل والإدراك والحركة.

أنا هو الذي يحرك هذه المواد التي يتكون منها الجسد، والمواد التي يظهر منها الظل.

وبما أن الظل – مهما كان سبب وجوده – يظهر داخل دائرة الوجود التي نتحدث عنها، فإنني أتعامل معه كجزء من هذا الوجود، مرتبطًا بالجسد الذي يظهر منه.

وعندما أفقد القدرة على التحكم في الجسد، أفقد حضوري في هذا العالم الذي أسميه الواقع.

ومن هنا أصل إلى فكرة أن «أنا» تمثل معنى الحياة بالنسبة إلى هذا الجسد؛ فهي ليست مجرد مادة، بل علاقة بين الإدراك والفعل والوجود.

لكن يظهر سؤال أعمق:

إذا كنت أنا الذي يرى، فكيف يمكن لي أن أرى الحقيقة كاملة؟

فالذي يبحث عن الحقيقة هو نفسه الأداة التي يحاول بها الوصول إليها.

كيف يمكن للعين أن ترى نفسها دون مرآة؟

وكيف يمكن للوعي أن يحيط بذاته وهو الأداة التي يدرك بها كل شيء؟

فكيف أرى الحقيقة وأنا جزء من عملية رؤية الحقيقة؟

وكيف أرى الوجود وأنا أستعمل الوجود نفسه لكي أبحث عنه؟

وهنا يظهر لغز الإنسان الأكبر: أنه يبحث عن أصل الأشياء، مستخدمًا نفس الوعي الذي هو جزء من هذه الرحلة.

الفصل الثامن: أنا بين الوجود واللاوجود

بعد أن حاولنا فهم معنى «أنا»، وأنها ليست مجرد الجسد المادي، بل ذلك الإدراك الذي يمنح الجسد الحركة والمعنى، ننتقل إلى سؤال أكثر تعقيدًا:

أين يكون وجودي عندما لا أكون واعيًا؟

إذا كانت «أنا» هي التي تعطي معنى للحياة، وهي التي تدرك الوجود، وهي التي تعرف العالم وتستوعبه، فماذا يحدث لي عندما أنام؟

في حالة النوم، أخرج – حسب هذا التصور – من العالم الذي أسميه الواقع. لا أتحكم في الجسد، ولا أتحكم في ظله، ولا أمارس الفعل والإدراك بالطريقة التي أمارسها في حالة اليقظة.

فإذا كان وجودي مرتبطًا بالوعي، والذاكرة، والقدرة على التأثير في الجسد، فكيف أصف حالتي أثناء النوم؟

هل أنا موجود بنفس المعنى الذي أكون عليه وأنا مستيقظ؟

أم أنني أقترب من حالة أخرى تقع بين الوجود واللاوجود؟

فالجسد في تلك اللحظة يبقى حاضرًا في العالم. يتنفس، وتعمل أعضاؤه، وتستمر عملياته الحيوية. لكن «أنا» التي أدرك بها نفسي، وأتذكر بها الماضي، وأخطط بها للمستقبل، لا تكون حاضرة بالطريقة نفسها.

وكأن هناك فرقًا بين وجود الجسد، ووجود الذات المدركة.

فقد يكون الجسد موجودًا ضمن مجموعة الأشياء الموجودة، لكن حضور «أنا» يحتاج إلى شيء آخر: يحتاج إلى الوعي والاستمرار والذاكرة.

وهنا يظهر سؤال عميق:

إذا كانت ذاكرتي هي التي تمنحني الإحساس بالاستمرار، فماذا يحدث لوجودي عندما لا تكون هناك ذاكرة تحمل التجربة؟

لو وُجد جسد يعمل ويتحرك في العالم، لكنه لا يحمل أي اتصال بالماضي، ولا يحتفظ بأي تجربة، فهل سيكون هذا هو نفس «أنا» التي أعرفها؟

ومن هنا يبدو أن وجود الإنسان ليس نقطة واحدة بسيطة، بل هو حالة تقع بين عدة عناصر: الجسد، والوعي، والذاكرة، والقدرة على الإدراك.

فأنا لست مجرد جسد، ولست مجرد ذاكرة، ولست مجرد وعي منفصل، بل أنا العلاقة التي تجمع هذه العناصر وتمنحها معنى.

ولهذا أجد نفسي بين الوجود واللاوجود؛ حاضرًا عندما أدرك وأتذكر وأفعل، وقريبًا من الغياب عندما تنقطع هذه الروابط.

وهنا يعود السؤال الأكبر:

إذا كان وجودي نفسه يحتاج إلى الوعي لكي أعرفه، فكيف يمكن لي أن أصل إلى حقيقة الوجود الكامل؟

وكيف يمكن لشيء يبحث عن الوجود أن يحدد مكانه بين ما هو موجود وما هو غير موجود؟

الفصل الأخير: السؤال الذي يعود إلى بدايته

بعد كل هذه الرحلة، وبعد كل هذه التأملات حول الوجود، والوعي، والذاكرة، والزمن، والجسد، يبقى السؤال قائمًا:

هل أنا موجود أم غير موجود؟

هل حقيقة وجودي أمر واضح لا يحتاج إلى بحث؟ أم أن وجودي نفسه يحمل أسرارًا لا أستطيع الإحاطة بها؟

أنا الذي أبحث عن الحقيقة، أنا الذي أسأل عن أصل الوجود، أنا الذي أحاول أن أفهم العالم من حولي، ما زلت عاجزًا عن الإحاطة الكاملة بحقيقة وجودي.

فإذا كان الإنسان، وهو أقرب الأشياء إلى نفسه، لا يستطيع أن يحيط بحقيقة وجوده إحاطة كاملة، فكيف يمكن له أن يظن أنه قادر على أن يحصر خالق الوجود في مفهوم أو صورة أو تعريف؟

كيف يمكن لعقل محدود بأدواته، ومدرك يعمل داخل الزمان والمكان، أن يحيط بمن يُفترض أنه خالق الزمان والمكان؟

إن السؤال: هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟ يصبح سؤالًا يحتاج قبل كل شيء إلى فهم حدود الإنسان نفسه.

فالإنسان لا يرى الحقيقة إلا من خلال وعيه، ولا يفهم الوجود إلا من خلال أدواته العقلية، ولا يصف الأشياء إلا باللغة والمفاهيم التي تنتمي إلى العالم الذي يعيش فيه.

فإذا كان الإنسان لم يستطع أن يحيط بذاته، فكيف يحيط بمصدر الوجود كله؟

وربما تكون أعظم حكمة يصل إليها الإنسان ليست امتلاك كل الإجابات، بل معرفة حدود الأسئلة، ومعرفة حدود العقل الذي يطرحها.

الخاتمة: السؤال الذي يبقى

بعد كل هذه الرحلة، يبقى سؤال أخير:

هل يجب علينا أن نملك جوابًا لكل سؤال؟

ومن الذي ألزم الإنسان أن يجد جوابًا لكل شيء؟
هل عدم معرفتنا بجواب سؤال يعني أن السؤال بلا قيمة؟ أم أن هناك أسئلة تكشف لنا حدود عقولنا قبل أن تكشف لنا الحقيقة؟

فربما ليست الحكمة دائمًا في امتلاك الجواب، بل في معرفة حدود قدرتنا على السؤال.

ومن هنا أعود إلى السؤال الأول:

هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟

إذا كان خالق الوجود هو الذي أوجد معنى الوجود واللاوجود، فإن مفهوم الوجود واللاوجود لا يمكن أن يكون هو الحد الذي نحصره فيه؛ لأن الوجود واللاوجود هما من المفاهيم التي نشأت بعد الخلق.

فلا يمكن أن نقيس خالق المفهوم بالمفهوم الذي خلقه، ولا أن نحدّ من أوجد المعنى بالمعاني التي أوجدها.

إن خالق الوجود – في هذا التصور – لا يحده مفهوم، لأنه هو الذي أوجد المفاهيم. ولا يحده كلام، لأنه هو الذي أوجد القدرة على الكلام. ولا تحيط به صورة، لأنه هو الذي أوجد الصور والأشكال.

هو خالق الأشياء، وليس شيئًا من الأشياء.

ولهذا ربما لا يكون السؤال الأعمق هو:
هل خالق الوجود موجود أم غير موجود؟

بل السؤال الذي يخص الإنسان أكثر هو:

هل أثر خالق الوجود حاضر في قلبي أم لا؟

فإذا كان الخالق قد أوجد الوجود، وأوجد الوعي، وأوجد الحب، فإن الإنسان لا يبحث فقط عن حقيقة خارجية، بل يبحث أيضًا عن العلاقة التي تربطه بهذه الحقيقة.

فالسؤال الأخير ليس فقط سؤال العقل، بل سؤال القلب:

هل يوجد الحب الذي وضعه خالق الوجود في قلبي؟

وهنا تنتهي الرحلة...

ليس بانتهاء الأسئلة، بل ببدء تأمل جديد.